تمثيلية الفكر في الحساسية الشّعرية الجديدة:
دراسة من خلال نماذج معاصرة

The representationality of thought in new poetic sensitivity :
A study through contemporary models

إعداد

الحسين بنبادة

Al-Hussein Benbadah

أستاذ مبرز للتربية والتكوين، كلية علوم التربية
جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية

Doi: 10.21608/mdad.2025.462656

استلام البحث ٢٦/ ٧/ ٢٠٢٥
قبول النشر ٢٥ / ٨ / ٢٠٢٥

بنبادة، الحسين(٢٠٢٥). تمثيلية الفكر في الحساسية الشّعرية الجديدة: دراسة من خلال

http://mdad.journals.ekb.eg

نماذج معاصرة. ***المجلة العربية مـــداد***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر،٩(٣١)، ٤٦ - ٨١ .

ISSN : ***2537-0847*** **eISSN :** ***2537-0898***

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

تمثيلية الفكر في الحساسية الشّعرية الجديدة: دراسة من خلال نماذج معاصرة

الملخص:

يحاول هذا المقال البحث في موضوع أساسي، وهو تمثيلية الفكر في نماذج الحساسية الشّعرية الجديدة، وذلك من خلال عملين شعريين (لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي) لمحمود درويش، و(أول الجسد آخر البحر) لأدونيس. ونستهدف هنا الإجابة عن إشكالية أساسيّة تتمثل في كيفية تمثيل الشّعر لفكر خاص به، وطبيعة المواقع الجمالية التي يتحقّق من خلالها هذا التّمثيل، والأبعاد التي تتراءى من خلال ذلك. وتفرض التّعدديّة على مستوى التّجليات ومواقع التّمثيل اعتماد منهج هيرمينوطيقي شعري يسمح بتكوّن تلك القراءة التي تتعقّب التّدليل الرّمزي للنص، وتقيم معه حوارا نقديًّا مفتوحًا. وقد توصّلت هذه القراءة إلى أن تمثيلية الفكر داخل الحساسية الشّعرية الجديدة تتحقّق من خلال الأفق التّدليلي الذي يتشكّل من خلال انزياحات اللغة، وإيحاءات الصّور الشّعرية، وأصوات الكتابة التي يمتزج داخلها الذاتيُّ والمجرّدُ والمشخّصُ... وهي تمثيلية تكشف عن طموح شعري لتجذير أفق فكري كوني يعانق فيه الشّعرُ همومَ الإنسان في زمن يجري فيه التّعتيم على آلام الإنسانية وأسئلتها.

الكلمات المفتاحية:

فلسفة الشعر، المواقع الجمالية، القراءة الشّعرية التأويلية، الأفق الكوني، هموم الإنسان.

Abstract:

This article attempts to explore a fundamental topic, which is the representationality of thought in new poetic sensitivity models, through two poetic works: "I Don't Want This Poem to End" by Mahmoud Darwich and "The Beginning of the Body, the End of the Sea" by Adonis. We aim here to answer a fundamental question about how poetry represents its own thought and the nature of the aesthetic sites that achieve this representation and the dimensions

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

that appear through it. The multiplicity at the level of manifestations and representation sites requires adopting a poetic hermeneutic approach that allows for the formation of a reading that tracks the symbolic signification of the text and establishes an open critical dialogue with it. This reading concluded that the representationality of thought is achieved through the indicative horizon formed by linguistic shifts, poetic image ambiguities, and the voices of poetic writing in which the subjective, abstract, and concrete are blended in one crucible. This representationality reveals a poetic ambition to root a universal intellectual horizon in which poetry embraces human concerns in a time when human suffering and questions are being obscured.

Keywords : Philosophy of poetry, Aesthetic sites, Poetic hermeneutic reading, Universal horizon, Human concerns.

. . .

المقدمة:

في الموروث النقدي القديم، جرى توصيف الشّعر بأنه أكثر فلسفةً من التّاريخ وأعمق منه، فهو يضيء الكليات لا الجزئيات (أرسطو)، وفي المنجز النقدي الحديث، جرى توصيف الكتابة الأدبية بأنها تجعل المعرفة احتفالًا (رولان بارث)، وفي الفلسفة المعاصرة، جرى توصيف الشّعر بأنه يؤسّس الموجود بواسطة العبارة (هايدغر)... بهذا الوعي النقدي، الذي يؤمن بتقلّص المسافات بين المعارف والفنون، ويعترف بكونية الفكر وتعالق أقطاب المسألة الإنسانية في عموميتها، انبثقت، في الشّعرية العربية المعاصرة، بداية من التسعينات ومرورًا إلى الألفية الجديدة، حساسية مغايرة تتأسّس على إيمان بلا جدوى الأدب الخالص، فالتّوقيع الجمالي منذور إلى أن يحمل في طيّاته أثرًا لعالم فكري يتردّد صداه من خلال جماليات نصية تشيّد معرفة خاصة تتطلب شحذ فعل قرائي يتعقّب

ISSN : *2537-0847* eISSN: *2537-0898*

مسالكها و يستكشف خيوطها.

هذه المآلية الشّعرية الجديدة، تنطلق من وعي بأن الشّاعر «لم يعد [...] يجد الرّاحة والاطمئنان في الواقع التاريخي أو الموضوعي المحيط به، ولا عاد يشعر بقربه من حقيقة عالية كانت تطلّ على أسلافه وترعاهم. لذلك راح يخلق لنفسه عالمًا جديدًا من خياله، ويبدع بالكلمة الشّاعرة وحدها مملكة تعادي كل ما هو مألوف، وتناقض كل ما كان يفوح برائحة الثّبات والاطمئنان»[1]. في الحساسية الشعرية الجديدة، لم تعد تجارب الغربة والضياع، أو الحياة والموت، أو اليأس والخيبة[2]... هي ما يطمئن إليه الشّاعر من فكر ورؤى داخل عالمه الشّعري. لقد أفرزت هذه الحساسية تلك الأعمال التي احتضنت شعرًا ينطوي على تجارب فكرية تنطلق من وعي بطبيعة الوجود التاريخي في زمنية لها أسئلة مغايرة، ولها قلق خاص يسكنها.

يحاول هذا المقال، البحث في موضوع أساسي وهو تمثيلية الفكر في نماذج الحساسية الشعرية الجديدة، وذلك من خلال عملين شعريين (لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي) لمحمود درويش، و(أول الجسد آخر البحر) لأدونيس. وهذه التّمثيلية لا يمكن أن تنكشف إلا من خلال الاشتغال من موقع وسطي بين الشعر والفكر؛ أي من خلال النقطة التي يُشَكِّلُ منها الشّعرُ فكرَه، والنقطة التي يتشكّل فيها الفكر شعريًّا. فالفكر يشتغل داخل الشّعر بشكل جمالي وانزياحي وكامن، وليس بشكل جدلي أو تفسيري أو برهاني. هذه التمثيلية الأدبية تستوجب شحذ فعل قرائي يبحث فيما وراء التّشكيل الجمالي؛ يشتغل في التّخوم التي يلتقي فيها الشّعر بالفكر، وتُستنبَتُ في أرضها تلك المعرفة بالعالم التي تؤطّر العمل الشعري.

وتأتي أهمية هذا الموضوع من كونه يبحث في قضية تحتلّ مكانة أساسية داخل

[1]- مكاوي، عبد الغفار، (٢٠١٧)، شعر وفكر: دراسات في الأدب والفلسفة، مؤسسة هنداوي، ص ٣١/٣٠.

[2]- في هذا السياق، ينظر ما قدمته الأدبيات النقدية في محاولاتها لتتبع قضايا الشعر المعاصر، مثل عز الدين إسماعيل في كتابه (الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية)، وإحسان عباس في كتابه (اتجاهات الشعر العربي المعاصر)، وأحمد المعداوي المجاطي في كتابه (ظاهرة الشعر الحديث)...

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الحساسية الشّعرية الجديدة، ففي هذه التجارب الشّعرية، لم تعد السّرديات الجماعية هي التي تؤطّر قضايا الإنتاج الشّعري الموضوعية والفنية كما وقع في مرحلة شعرية سابقة. بمعنى أننا أصبحنا أمام توقيعات خاصة لتجارب متفرّدة لها رؤى جمالية وكونية معينة لا تنفك تتجدّد. أهمية الموضوع تأتي من الاشتغال على هذه التعددية على مستوى التجارب، وهي تعددية تستوجب اعتماد قراءة نقدية تتفاعل معها، وتجتهد في كشفها وإضاءتها. وتأتي أهمية الموضوع كذلك من خلال اهتمامه بمنطقة التقاطع بين المعارف، وهي منطقة تستوجب الابتعاد عن الإسقاطات الخارجية، واحترام البعد البيني المشترك، وهو البعد الذي يتحدّد من خلال ضرورة الاشتغال على منطقة التقاطع بين الجمالي والفكري.

على أساس ذلك، فإن هذا المقال يحاول أن يجيب عن إشكالية أساسية تتمثّل في كيفية تشكيل الشّعر لفكر خاص به، وطبيعة المواقع الجمالية التي يتحقّق من خلالها هذا التشكيل، والأبعاد التي تتراءى من خلال ذلك، فتجليات التّمثيل الفني للفكر لا تتمشهد من خلال بعد منوالي مشترك أو قاعدي توجيهي، بل من خلال مواقع حرة تكشف عن خلق شعري خاص بصاحبه، وهو ما يستوجب على الفعل القرائي أن يجهد في كشفه وإضاءته.

هذه التعددية على مستوى التجليات ومواقع التمثيل تفرض اعتماد منهج هيرمينوطيقي شعري. وهو منهج يسمح بتكوّن تلك القراءة الجدليّة التي تقيم حوارا نقديًّا مع النص. حوار يتعقّب ما تضيء منه القصيدة، وما تولّد به أسئلتها، وما تُرمِّز به من أدواتٍ تعبيريّةٍ تكشف في مطلقها عن تجربة فكرية ووجود في العالم خاص بصاحبه. فقراءة الشّعر لا يمكن أن تكون مضيئةً إلا عندما تحفر في دائرة الممكن والملتبس الذي يتأسّس عليه الإبداع الشعري. القراءة الشعرية الهيرمينوطيقية تسمح بالسّير داخل هذا الأفق التعبيري الرمزي للقصيدة المعاصرة، وتفضي إلى الوقوف على حدود الفراغ والغياب والحيرة التي تنتاب يد الشاعر وهي تخطّ رؤاها وتعلن ثورتها على فكرٍ حضوريّ لم يفرز إلا المعاقل والقوالب المعمّمة.

الفعل القرائيّ الذي تسلكه هذه الدّراسة هو حصيلة لمنطلقاتٍ توجّه الفهم والتأويل،

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

وتوحّد الخيوط النّاظمة لمسلكيّة القراءة. أوّل هذه المنطلقات ما نسميه هنا (أوّلية النص)، فالمنطلق هنا شعريّ وليس إيديولوجيًا أو نظريًّا. بمعنى أن سيرورات القراءة تنبني على ما يقع على الصّفحة، لا ما يأتي من خارجها. وما يقع على الصّفحة هو القصيدة ذاتها ببنيتها التّعبيرية، وكاليغرافيّتها، وعلاماتها، ولغتها. أوليّة النص، تعني الاشتغال فيما يسميه صلاح بوسريف بشعرية الكتابة، تلك التي «تتخلّق في النص وبالنص، وهي ليست عقيدة مقررة من خارج النص، أو متعالية عليه، بل هي محايثة لتخلّق النص ذاته، به وفيه توجد، لا خارجه، أو في منأى عنه»[٣]... وثاني هذه المنطلقات، أنه لا يمكن الفصل في الحساسية الشّعرية الجديدة بين الشّكل والمضمون، فكلُّ شكلٍ هو مضمونٌ في جوهره. الشّكل والمضمون يلتويان معًا في إيقاع واحد كلّ ما فيه يستبطن معنى محتملًا؛ معنى محجوبًا يمكن الإنصات لصداه وفق سيرورة قرائية معيّنة. لا أسبقية ممكنة، بهذا الاعتبار، بين الشّكل والمضمون، فكلاهما يتخلّق في لحظة انبجاس واحدة. وثالث هذه المنطلقات، ما نسميه هنا (تضافر الدّوال)، فكل ما في القصيدة هو دالّ محتمل بعملية التّأويل. والدّوال هنا لا تقتصر على سواد الورقة بل تطال بياضها أيضًا، ولا تقتصر على تدليلها اللّغوي، بل تشمل أيضًا ترميزها العام من إشاراتٍ، وأرقامٍ، وعلاماتٍ، وغير ذلك. كل هذا يغدو، في هذه القراءة النقدية، ذا معنى ودلالات وعلامة على (لغوية وجود في العالم) تنكتب شعريًّا، وتستبطن خبرةً خاصّةً، ومنظورًا للكون، وفكرًا محتملًا يتردّد صداه داخل القصيدة. ورابع هذه المنطلقات، ما نسمّيه بتعدّدية المراكز التعبيرية. لا وجود، في ضوء هذه التّعددية، لتراتبيّة جمالية على مستوى بنية الخطاب الشّعري، فكلّ المكوّنات تنصهر في حضرة واحدة، هي حضرة الكتابة الشّعرية التي لا مركز لها سوى ما تنتقيه القراءة الشّعرية الهيرمينوطيقية من مهيمنات نصيّة تخدم سيرورات قرائية معيّنة.

بناء على العناصر التقديمية السّابقة، سنحاول هنا أن نقدّم إجابات عن الأسئلة الفرعية الآتية:

[٣]- بوسريف، صلاح، (٢٠٢١)، الفكر النائم في نقد ومساءلة الشعرية العربية المعاصرة، ط١، عمان، فضاءات للنشر والتوزيع، ص٣٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

- ما هي العوالم الفكرية التي يمثّلها محمود درويش وأدونيس داخل شعرهما؟
- كيف يتمّ هذا التّمثيل على المستوى الجمالي؟
- ما الأبعاد الإنسانية والكونية التي تنجاب من وراء هذا التّمثيل؟
- ما الفرق بين تمثيلية الفكر عند الشّاعرين السّابقين؟

. . .

المبحث الأول: تمثيلية الفكر عند محمود درويش: (لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي)

بخبرة من عمروا طويلًا في عالم الكتابة، وبإصرار من ينقش وصيّته الأخيرة على أرض الشّعر، وبارتعاشة أصابع تراود، في تعب النهايات، خفقَ الولادة الأولى، وبحدس من اعتراهم نداء الأبديّة، وجذبهم صوت الخلود قبل أن يسدل العمر ستاره الأخير... كتب محمود درويش في «لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي»[٤] ما يبدو تأسيسًا «لِلْمَا- يَدُومُ» الذي يَصُونُ به الشّعر نبضَه في المخيال الثّقافي كاملًا، وما يبدو بيانًا لفكر شعري قائم على «الأنا- أحيا» كملاذ أخير انتخبته الشّعرية الدرويشية في آخر تجريب لها. كوجيطو آخر ينفرز كجناحين يرفعان القصيدة إلى أرض جديدة بلا حدود ولا جدران؛ هي أرض الأبد، النّصر الذي ظفر به محمود درويش وهو يقوم بمراجعاته الأخيرة بعيدًا عن الأيديولوجيا وعن المقولات الغائية التي تُسكِن الشعر في دائرة «الما- يَفْنَى»؛ ذلك الوظيفي الآيل إلى الموت والامّحاء. زفرة أخيرة كتبها درويش بسبّابة سقراط المتعالية في زرقة الأبد، تلك السبّابة الهازئة بجرعة سمّ يفضي إلى الانطفاء الأخير. «اللّا» التي تفتتح عنوان الديوان كأنها تكتب في ذلك الأفق المتعالي على لحظة النهايات. أفق ينداح عن سبّابة متجاسرة، تشير بالفائض من معناها، إلى الفراغ الممتلئ الذي غرس فيه درويش، وهو يتحسّس موته، مرتحلَه الشّعري الأخير. «لا» تُؤَمِّن سريان القصيدة في جغرافية لا تنحدّ، هي جغرافية الفكر الكونيّ الذي يحصّن للشّعر دمَه، وللكتابة انتسابَها إلى فضاء المختلف بما هو إفراز لخبرة جديدة انعقدت فيها صلات مغايرة بين الذات

[٤]- ينظر: درويش، محمود، (٢٠١٤)، لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي، ط١، دار الناشر، عمان ورام الله، مؤسّسة محمود درويش، الأهليّة للنشر والتوزيع.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

والعالم والإبداع.

بهذا الامتلاء الخبروي الأخير، كتب محمود درويش ما يكشف عن وعي أنطولوجي بضرورة تشعير العالم بدل توتيره؛ وعي من أدرك أن البعديّ وحده يمكن أن يكون وصيًّا على الشّعر.. أن الانهمام بالحدود الضيّقة يفضي إلى تلك العماوات التي تحجب البعد الكونيّ للكتابة .. أن الشّعر يجب أن يرحب ليستشرف المصائر الكبرى للإنسان.. أن الإيديولوجيّ لا يهب الشعر شيئًا عدا عكّازين يحرمانه من ارتياد الأقاصي والتخوم.. أن الامتلاء الوظيفيّ للشعر يفضي إلى إعادة إنتاج الخواء، بينما امتلاؤه الرمزي يفضي إلى ذلك الشعر الذي «لا ينتهي» بعدما يرحل صاحبه.

١- وعي التّناهي ووعي المجاوزة: آفاق جديدة للخبرة الشّعرية

يستضمر هذا الديوان وعيًا خاصًّا تكشف عن صداه الكثيرُ من اللّمحات الشّعرية، فمحمود درويش يظهر كما لو أنه كتب في ضوء نداء دافع/جاذب انجابت صورته منذ العنوان. فالإحالة على فعل التناهي يدلّ على أنّ الشاعر انتهى، في آخر ما كتبه، إلى أن الشّعر الحقيقي هو ما يُجاوز هذا التّناهي الذي يهدّد الإنسان بما هو قوّة إبداعية. وعي التّناهي يستبطن وعيًا مضادًّا يتأطّر داخله الممكن الذي انكشفت في ضوئه مدارات التّوصية الشعرية الأخيرة لمحمود درويش. فالتّناهي يستدعي شعريًّا المجاوزة بما هي بحث وتقصٍّ وانبثاق لآفاق كتابة جديدة، ولمدار فكر جديد يكون فيه الإنسان هو القضيّة الكونية الكبرى، وتكون فيه الأبديّة هي الرّهان الذي تنعقد على أرضه المقاومات ضدّ العارض والزّائل الذي يتهدّدنا. وعي التناهي هو وعي بتناهي عالم تحكمه المقولات الغائية والأيديولوجية والماديّة، ويحاصره نظام الأشياء، وتضلّله غشاوات الجزئيّ، وتستبد به أنساق البعد الواحد. إنه وعي بتخلّق واقع جديد تلوّنت فيه «المياه كلّها بلون الغرق»، وانحدر فيه الإنسان إلى كائن يصرف عمره لأجل الموت.

في ضوء هذه الخبرة الشعرية المحكومة بتقاطبٍ لوعيين، تنبثق توصية محمود درويش الباحث عن إقامة جديدة للإنسان. إقامة شعرية، بلا حدود ولا سياسات، في رحاب يغدو فيه قلب الإنسان «قابلًا لكل صورة»، وتنجاب فيه صورة العالم عاريًّا إلا

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

من ردائه الأوّل، وهو رداء الأبدية:

ههنا، بين شظايا الشيء
واللاشيء، نحيا
في ضواحي الأبديهْ [٥].

تلك صورة لصوت جديد يدخِل فيه الشعرُ الإنسانَ إلى مرتبة المقام الأصفى للحياة. وهو يتجرّد من دائرة المغلق والمعلوم، ويتجاوز ضجيج الواقعة بما هي شاهد على التناهي الذي يقيّد الإنسان إلى الحضور، ويفضي به إلى إعادة إنتاج الموت والأفول. الأبدية هي جغرافيا جديدة يغرس فيها الشاعر جذورَه الأصيلة، كأنما يستحدث مكانًا تَنْشَدُّ إليه كلّ الرّحال، وتتوحّد عند أحوازه المصائر، وتتلاشى فيه الصّراعات:

الآن، أنت اثنان، أنت ثلاثة، عشرون

ألفٌ، كيف تعرف في زحامك من تكون؟ [٦].

إنها أرض شعرية مجازية يستعيض بها الشّاعر عن واقع مأساوي وعن موت لا ينفك يرحب بأقنعة مختلفة. يستعيض بها عن التّناهي الذي ينغرس في الوجود، ليؤسّس ما يبدو تشعيرًا للكون، أو ما يبدو مجازية وجود في العالم باعتبارها الحقيقة القابعة في قعر البئر، بينما الواقع هو الزّيف والأوهام «**كل شيء هنا سينما، سينما، سينما!**» [٧]؛ ما يستدعي المجاوزة والتغيير بإقامة تهفو إلى أرض الخلود باعتبارها نصرًا شعريًّا يغالب به محمود درويش موتَه، ويستجلب به تلك الأنا الجديدة المتجرّدة من سردياتها القديمة، والصادحة بلغة مغايرة هي لغة الدّوام؛ الأنا أحيا المقيمة في أفق كونيّ فسيح، الأنا التي انتهت إلى أن «**الزمان هو الفخ**»، وليس المكان، وإلى أن «الإنسان ليس قفصًا، بل هو اللانهاية، ليس إقامة، بل سفر دائم. الإنسان هو ما يتجاوز الإنسان. إنه موجود فيما

[٥]- المرجع نفسه، ص ١١.
[٦]- المرجع نفسه، ص ١٦.
[٧]- المرجع نفسه، ص ١١٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

يأتي»[٨].

القفص يغدو في هذا الديوان ذلك الفكر المغلق الذي يستدعي المجاوزة؛ القالب الذي يلبس رداء الإيديولوجيا والحدود وكلّ أنواع الجمود الفكريّ. وحدها قيثارة الشّعر تحمل الإنسان في لحظات سقوطه، وتهبه ذلك النّشيد المجازي الذي يرفع الإنسان بصورته الكونية خارج دائرة الانسحاق والثبوتيّة والتّناهي، وتهبه تلك القوّة السّرية الدافعة نحو العبور والتخطّي، وتفتح له الحدود للخروج إلى وطن جديد هو وطن الشّعر، وجغرافية لا تنحدّ هي جغرافية القصيدة التي لا تنتهي:

جيتارتي فرسي
في الطريق الذي لا يؤدي
إلى أيّ أندلس
سوف أرضى بحظّ الطيور وحرية
الريح. قلبي الجريح هو الكون.
والكون قلبي الفسيح. تعالي معي
لنزور الحياة، ونذهب حيث أقمنا
خيامًا من السرو والخيزران على
ساحل الأبدية...[٩]

الأبدية هي الطريق لمجاوزة الضّيق الوجودي، وهي النّداء الجديد الذي يستمسك به الشّعر عندما تغدو المأساة مشتركًا إنسانيًّا يجمع بين الأنا والآخر. الشّعر هنا كأنه يستجلب للإنسان سعادته الأولى لمّا كان لكل فرد نجمه، كأنّه يتمترس خلف أوتاره الخالدة التي تنشد معزوفة الحياة. فروسيّة جديدة تلك التي يستحدثها محمود درويش، كأنما يستعيد بها حنينًا إلى الرعوية الأولى قبل سقطة الإنسان في الزمن. الرعويّة الأصيلة التي كان فيها الإنسان نشيدَ الأرض والأرضُ نشيدَ الإنسان، لمّا كان الإنسان لا يتعقّب شيئًا

[٨]- أدونيس، (٢٠١٢)، زمن الشعر، ط٧، بيروت، دار الساقي، ص ٣٧٢.
[٩]- درويش، محمود، (٢٠١٤)، لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي، مرجع سابق، ص ٧٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

غير الأفق، ولا يهفو لشيء عدا زرقة السماء حيث يتراءى القدوم بما هو توق وتطلّع للخلق والمجاوزة. مجاوزة «**السيناريو الجاهز**» بما هو مفعولية الوجود في العالم، بما هو هدر شامل يسقط فيه الشاعر وعدوّه في عتمة حفرة واحدة، يتأمّلان معًا سيرورة زمن يولد مصيرًا منفلتًا من قبضة اليد:

هرب الوقت منّا
وشذّ المصير عن القاعدهْ
ههنا قاتل وقتيل ينامان في حفرة واحدهْ [١٠]

كأن محمود درويش يستبدل هنا وعيه المكاني بوعي آخر زماني: **ليس المكان هو الفخ**[١١]، **إن الزمان هو الفخ**[١٢]. وعيان إذًا يجاوز فيهما الواحد الآخر، وتستبدل بهما الشّعرية قشرتها؛ قشرة مكانيّة بالية تتهيّأ صورتها كالقفص، وقشرة زمانية وسّعت المدى الذي يكتب منه الشاعر. جعلته يرحب ليلامس الكون والأفق والمستقبل والأبدية. يجاوز شعرَ القضيّة نحو قضيّة الشّعر بما هو ارتياد للأقصى الذي لا ينتهي، وللصّحو الذي تتخلّق فيه أوطان جديدة للكتابة، وتنكتب خبرة بالعالم تتلاءم مع الزمن الجديد، وهو زمن المراجعة والتقويض، وزمن الأسئلة الكونية الكبرى، وزمن النهايات التي لم يُرِدْ لها محمود درويش أن تقبض على روح القصيدة.

٢ـ فلسفة الإبداع الشعري: وصايا من داخل القصيدة

وهو يكتب كلامه الأخير، يبدو محمود درويش، كما لو أنه كان مسكونًا بسؤال الشّعر ذاته، كأنما كان ممسوسًا بالتّأشير على جغرافية للقصيدة تقاوم بها بعضًا من العراء الذي يتهدّدنا في زمن يلتهم فيه النفعيّ كل شيء، وتجهّز فيه الأنساق الغائية القوالب والأنماط باعتبارها مسالك جاهزة لتأطير يطال الإبداع ذاته. محمود درويش، بحدس الشّاعر الذي لا يخيب، يظهر كأنه يستشرف مصير الشّعر في زمن العراء الكلّي،

[١٠]- المرجع نفسه، ص ٥٨.
[١١]- المرجع نفسه، ص ٦٦.
[١٢]- المرجع نفسه، ص ٧٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

أين يُفصل بين الإنسان ومحجوبه. المحجوب الذي تستبطنه اللغة بما هي «أخطر النعم» (مارتن هايدغر)، ويستضمره الفعل الإبداعيّ بما هو تمكين للكينونة الإنسانية، ويصدح به لسان الشّعر بما هو طاقة رمزية تقدم دائما رؤى جديدة للكون. الرؤى التي تتسربل بلبوس مجازي تنفرز عنه ممكنات أخرى للوجود في العالم. محمود درويش، بعدما كانت القصيدة ملاذه، يخلّد، في هذا الديوان، ما يحصِّن للقصيدة ملاذَها الأصفى، ما يحفظ به الشّعر ماءه في زمن قُيّض فيه للزائل أن يكون سيّدًا على كلّ شيء. القصيدة، في هذه البيانات الشّعرية، تغدو رمية نرد تتحدّى غرقًا موشكًا. رمية ذات تواجه مصيرها بكتابة سرديّتها الخاصة بعد أفول السّرديات المشتركة. عندما تصبح القصيدة رمية نرد، فإنها تحتفي ببطلان المشترك الشّعريّ باعتباره نمطًا يفضي إلى الثّبات. تعلن عن كونها توقيعًا يمجّد اختلافه، وأثرًا يتأسّس على فكر الفراغ والانفصال. إنها رمية تعلن من خلالها القصيدة عن كونها ثورة ضد عالم قيّدته مسلكيّة هاملتية؛ مسلكيّة أن تكون هكذا أو لا تكون. بينما في رمية النّرد تتحلّى القصيدة بوجود صدفوي تكون فيه الكتابة حاصل جذبة يتلوّن فيها الشعر بإيقاع خاص، هو إيقاع الحدس الشّعري ومساربه اللّانهائيّة:

لا دور لي في القصيدة
غير امتثالي لإيقاعها:
حركات الأحاسيس حسًّا يعدّل حسًا
وحدسًا يُنزّل معنى
وغيبوبة في صدى الكلمات[١٣].

القصيدة هنا هي انفراز لانكتاب حرّ محكوم بمنطق بعديّ لا قلبيّ، بمنطق المجهول لا المعلوم. المجهول الذي تنجاب تباشيره برمية نرد داخل رقعة لانهائيّة، هي رقعة الحدس الشّعري، وبإيقاع حر، هو إيقاع الجذبة المنطوية على سرّها.

لقد كان محمود درويش كأنما يعبّر، بحكمة الرّاسخين في الشّعر، عن وصاياه الخالدة لتأمين أرض حملته عمرًا كاملًا. تأمينها بما يؤصّل لها جوهرها الخالد كعمل فنّي

[١٣]- المرجع نفسه، ص ٤١.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

يبقى ويدوم في زمن العرضيّ والزّائل. ليس لدرويش هنا إلا القول الشّعري للكلام عن القصيدة. كأنما يراهن على كشف هايدغري لمنطق الشعر حيث «الطريقة الوحيدة التي تلائم الكلام على القصيدة ليست سوى القول الشعري نفسه»[١٤]، قول يبدو أنه يراهن على بيان شعري حول الشّعر. بيان يدوم كصوت لحقيقة شعريّة لا نقديّة، كشفيّة لا قسريّة، انبثاقيّة لا منواليّة. حقيقة تتأسّس على إرادة تخليص الشّعر من الغائيّ الذي يشدّه إلى الواقعة والقصد والحدود. الغائيّ الذي يفضي إلى شعر مأهول بعارض ينتهي ويزول بزوال الواقعة. لقد أدرك محمود درويش أن الشّعر هو أصفى من الواقعة، وأن حقيقته ينبغي أن «يلقى بها إلى إنسانيّة تاريخيّة»[١٥]. يكون فيها الأنا هو الآخر، والمستقبل هو الزّمن، والأبديّة هي الجغرافيا. تكون، بتعبير آخر، كفاحًا ضد الموت، وابتغاء ديوجينيّا لشمس لا تحتجب. شمس تَعِدُ بشروق إنسانيّة تنبعث أحلامها، ويَنتَخِبُ فيها كلُّ إنسان نجمَه بما هو الرحم الأوّل لخلق إنسانيّ لا هدر فيه:

لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي أبدًا
لا أريد لها هدفًا واضحًا
لا أريد لها أن تكون خريطة منفى
ولا بلدًا {...}
أريد لها أن تكون كما تشتهي أن
تكون:
قصيدة غيري. قصيدة ضدي. قصيدة
ندّي...
أريد لها أن تكون صلاة أخي وعدوّي[١٦]

فلسفة جديدة للشعر تنقال بالقول الشعري. فلسفة كاشفة لانبثاق وعي جديد بالعالم

[١٤]- هايدغر، مارتن، (١٩٩٤)، إنشاد المنادى: قراءة في شعر هولدرن وتراكل، ترجمة باسم حجار، ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص ١٠١.
[١٥]- هايدغر، مارتن، (٢٠٠٣)، أصل العمل الفني، ترجمة أبو العيد دودو، ط١، كولونيا، ألمانيا، منشورات الجمل، ص ١٤٩.
[١٦]- درويش، محمود، (٢٠١٤)، لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي، مرجع سابق، ص ٧٢ / ٧٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

تتخلّق فيه مقاومات الفن ضدّ «**سعة الهاوية**»، وضدّ فداحة السّقوط الجماعيّ في «**حفرة**» يغدو فيها الزّمان، لا المكان، هو الفخّ. يستحيل الشّعر، داخل هذه السّيرة الجديدة، إلى قيثارة تَعْزِفُ، بأوتارها الأورفيوسيّة الأولى، نغمة الحياة. نغمة كائن من أجل الجمال يعيش بـ «الأنا- أحيا». الشّعر هنا يرتقي إلى مرتبة النّشيد الذي تتوحّد عند عزفه الكائنات. الكلّ يتحلّق حول نغمته الخالدة، يصغي لنداء هو نداء العيش المشترك داخل عالم يؤمن بفكر الاختلاف ويحتضنه في ضوء حياة تتحلّى برداء القصيدة، وقصيدة تتحلّى برداء الحياة.

فَصَّلَ محمود درويش وصاياه حول فلسفة الإبداع الشعري في قصيدة ضمّنها رسالته إلى «شاعر شاب» يدعوه فيها إلى أن يؤسّس كتابته على يُتْم شعريّ ينجاب فيه صوت الشّاعر أوّلًا. ذلك الصّوت الذي لا يتميّز ويَخْلُدُ إلا بالنسيان الذي يقيمه الشّاعر في علاقته بالمنجز الشّعريّ السّابق عليه، وبالخلاصات التي تخنق الشعر. كأن محمود درويش يدعو إلى أن تكون الكتابة توقيعًا على أرض المختلف لا المؤتلف. يدعو إلى شعر يقوم على الانفصال الذي ينطلق، حسب عبد السلام بنعبد العالي، من «نفي الحضور والتحقق النهائي»[١٧]، فالشّعر لا توريث فيه، بل هو تجربة وخبرة وحدس يتشكّل باستمرار بناء على قراءات منذورة إلى النّسيان والمجاوزة بغاية الخلق والتّحديث باعتبارهما أصل العمل الفني:

لا تصدّق خلاصاتنا، وانسها
وابتدئ من كلامك أنت. كأنك
أول من يكتب الشعر،
أو آخر الشعراء [١٨]

كأن محمود درويش يوصي بألّا تكون هناك وصاية قبليّة على الشعر. فالقصيدة تتأسّس على البدء الدائم، وديمومتها، كأثر فنيّ، مرهونة بالقدوم الذي لا يتشكّل بالحاصل،

[١٧]- بنعبد العالي، عبد السلام، (٢٠٠٨)، في الانفصال، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ص٧.
[١٨]- درويش، محمود، (٢٠١٤)، لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي، مرجع سابق، ص ١٣٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

بل بما لا يفتأ يحصل، بما نسعى إليه، فيظلّ دائمًا أمامنا. تلك هي الكتابة الشعريّة التي يسميها محمد بنيس «الكتابة بشيء من حتّى»[١٩]. تلك الكتابة التي تراهن على المجهول وعلى النّاقص، وتبقي على البياض متدفقًا ومفتوحًا.

٣ـ كتابة الذات وذاتية الكتابة:

يتخلّل هذا الدّيوان ما يبدو خطّا سيريًّا كتبه محمود درويش عن ذاته. وهو خطّ أخرجه الشّعر من بعده السّردي التواتريّ إلى بعد كشفيّ تساؤليّ، ثمّ أضفى عليه رمزية خاصة تهب السيريّ نشيده الخالد. فمحمود درويش أصبح، داخل هذا الخط، لاعب نرد بمعانيه البعيدة الكاشفة عن تحدٍّ للنسق العلّي للوجود، لاعب النرد الذي تتشكّل سيرته بناء على الممكن الذي انطوى دائمًا على «لاممكنه»، والحضور الذي انطوى على غيابه، والبقاء الذي انطوى على فنائه، والسّيرورة التي انطوت على قطيعتها. سيرة خاصة تتراكم فيها تجارب الحياة من خلال موقع شعريّ برزخيّ، ومن خلال إقامة بينية تستحضر الوجود عبر العدم والعدم عبر الوجود. كأنما محمود درويش هنا يسقط إحدى خصائص الشّعر على حياته ذاتها، فتنفرز تلك الحالة التي يتمّ فيها تشعير السّيريّ ليغدو صورة للمابين الفاصل بين الشيء وضده. إنها حالة خاصّة لكشف شعريّ يعبّر عن إقامة شعرية في الممكن عبّر عنها الشاعر بلازمة: «**كان يمكن ألا أكون**». إقامة يتوارى فيها شخص الشّاعر، ليعلن تقدم شعره أمامه:

من أنا لأقول لكم
ما أقول لكم؟ [٢٠]

ينسحب محمود درويش هنا من سيّادته على الشعر ليصبح الشّعر سيّد نفسه، وتتحلّى اللغة بقدرتها القولية. فالشّاعر لم يربح في رمية النرد إلا الصّحو الذي جعله «**شاهدًا على المجزرة**» باعتبارها حالة مأساة إنسانية ما انفكّت تتخلّق وتتمدّد. في رمية النرد، ظفر الشاعر بقراءة الواقع بوصفه فعالية بشريّة، وبالاقتدار الشّعريّ بوصفه

[١٩]- بنيس، محمد، (٢٠١٠)، كلام الجسد، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ص١٥.
[٢٠]- درويش، محمود، (٢٠١٤)، لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي، مرجع سابق، ص٣٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

حاصل إبداع خلقيّ. ظفر باليد المرتجفة التي ترمي النرد لتنجاب عنه القصيدة مدثّرةً بوجه من وجوهها النّردية اللّانهائية:

لا دور لي في حياتي
سوى أنني،
عندما علّمتني تراتيلها
قلت: هل من مزيد؟
وأوقدت قناديلها
ثم حاولت تعديلها...[٢١]

يكشف هذا الديوان أيضًا عن انتصار لفلسفة الذّات التي كانت تعيش سابقًا استلابًا بسبب شيوع خطابات الجماعة. كأن الشّاعر هنا يوصي بكتابة التّجربة الدّاخلية بعد انهمام سابق بالوقائع الخارجيّة التي أفضت إلى شعر لا يدوم. غير أن الرّجوع إلى التّجربة الداخلية كان محكومًا بوعي أنطولوجيّ جديد يتمحور حول البحث عن مسالك لمجاوزة سقوط عام لإنسانية فقدت أحلامها أو تكاد. الجماعيّ أفضى إلى تحكّم الإيديولوجيا في الإبداع، بينما الذاتيّ أفضى إلى شعر كونيّ محكوم بأسئلة ونداءات وجودية. كأن محمود درويش انتهى إلى مدّ الحبل لإنسان جورج باطاي «**الغارق في الرّمال**»، وهو غرق شامل استدعى خبرة إبداعية جديدة «**يحل فيها الإنسان ضيفًا على نفسه**»، ويغدو فيها الحدس الشعري هو «**القطار الذي سقط عن الخريطة**» ليقع في محطة لا جغرافية لها سوى جغرافية الدّاخل بما هو جغرافية للحياة يلتقي على أرضها الآخر من حيث هو أنا، والأنا من حيث هو آخر. ويغدو فيها المكان أرضًا داخلية تنتصر للغة الجمال والخيال كأصل أوّل للعمل الفني، وتنغلق فيها عين الشّاعر عن منطق الاحتراب والتوتّر الذي يغشيها، فيفرز ذلك القول الشعري:

(أقول لمن يراني عبر منظار على برج الحراسة :

[٢١]- المرجع نفسه، ص ٣٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

لا أراك، لا ولا أراك) [٢٢]

كأن للشاعر هنا مستقرًا في نفسه يعلو فيه المجاز على واقع الصراع، فيكون المجاز هو الحقيقة الهايدغرية الباقية، حقيقة الشّعر الذي يدوم، وحقيقة قصيدة أوصى لها محمود درويش، بأرض فسيحة، هي أرض الأبدية والخلود.

. . .

المبحث الثاني: تمثيلية الفكر عند أدونيس: (أوّل الجسد آخر البحر)

يقدم أدونيس في ديوانه «أوّل الجسد آخر البحر»[٢٣] إحدى لمعه الشّاهدة على تجريب شعري مائز في خريطة الإبدالات التي فتحتها القصيدة المعاصرة، ما يجذّر به نفسه ضمن حاملي الشّعلة القلائل الذين أناروا للشّعر العربي المعاصر طريقه نحو البقاء في صورة خلّاقة، ونحو التّشييد لسفر جديد مأهول بسؤال الوجود والكينونة. السّؤال الذي اخترق الإيديولوجيا وشقّ قشرتها ليطير كالفينيق في سماء الأبدية؛ أين يكون الشّعر منغرسًا في منبعه المقدس. طموح بروميثيوسي اشتدّت حاجة الزمن إليه، يقدّمه أدونيس بإخراج السوناتا الموسيقية، وبجذبة لغة إشراقية مسكونة بالخروج إلى المحال بما هو طاقة عروجية يرتاد بها الشّاعر سلّم الخيال. سلّمٌ تعانق فيه الكتابة رحمها؛ إمكانها الأنطولوجي العاري من كل ثوب، وتلامس فيه الأبجدية جسدها مزهوّة بتقاطيعه وحروفه لتقدّم ذلك العصف المجازي والخيالي والفكري؛ ما يُقدِّم به الشاعر توقيعه الخاص في الشعر. التوقيع الذي يتعقّب مصيرًا عالميًّا جديدًا للشّروق. مصير جوهره الحب؛ طريق الانتصار على تعب بات يكتبه الزمن. لغة كونية يستعيد بها أدونيس لسان أوفيد ليكتب حكاية أورفيوس تجدّدت الحاجة إلى قيثارته في زمن بات يقتات على هجران الأساسي منحدرًا نحو مأزق وجودي فريد، زمن فُصل فيه بين الإنسان ونجمه ليعيش وجودًا بالاقتلاع.

هذا أدونيس يغرس فكرًا شعريًّا يصّل ما بين الإنسان ونفسه، ما بينه وبين جسده، ما

---

[٢٢]- المرجع نفسه، ص ٣٠.

[٢٣]- أدونيس، (٢٠٠٥)، أول الجسد آخر البحر، ط٢، بيروت، دار الساقي.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

بينه وبين الأرض والحياة؛ موطن الحقيقة الفعلي، موطن الوعد بالممكن بما هو وجود آخر في العالم يستقرئ أدونيس تباشيره بحنين هؤلاء الذين شيّخوا في الأرض فسكنتهم جذبة نشيد أورفيوسي يقظ يلامس أبدية تقتات على وعد الحب ولغة الجسد ونشيد الأبجدية تأصيلًا لحق مهدور هو الحق في الحياة، وتجذيرًا لوجود آخر ينهض على الاعتراف بالذات، واهبة الخلق الإبداعي بما هو توقيع خاص في عالم يقوم على حاجة مقدّسة، هي الحاجة لتكريس الاختلاف.

١ـ شعريّة الانزياح؛ أو نحو أبجدية للتكشّف الأنطولوجي

للتّشكيل اللغوي في هذا الديوان دمغة خاصة تجعل القارئ يقف على ما يبدو حفلة خاصة تستحيل فيها القصيدة إلى شطح في اللغة وبها. فأدونيس يراكم، بذائقته الخاصة، ذلك العصف التّخييليّ اللّغويّ الذي تتقدّم فيه الكتابة حبلى بانزياحاتها البعيدة التي تعيد تسمية الأشياء، وتؤسّس لعلاقات جديدة تنعقد فيما بينها. ذلك هو (المحال) الذي كان تهمة في النقد القديم، لكنه بات اليوم سيمياء تدليليّة كاملة تنكتب عبرها تلك الإشراقات التي تنبعث من الكتابة الشعريّة ذات الحساسيّة الجديدة. الكلمة في هذا الديوان تبدو كما لو أنها تتحلّى بنشاطها البدئيّ التأمّليّ الذي تنعقد فيه حالة خاصّة من طلب الحقيقة، تلك الحالة التي تتكشّف فيها الأشياء أنطولوجيًا. تكشّفٌ تتعرّى فيه الدّوال من مدلولاتها لتتهيّأ على شكل (طلسم) شعريّ تبدو فيه التّسميات كأنّها حالة ما تفتأ تتحقّق.

نشاط هتكي ذلك الذي تخوضه اللّغة الشّعرية، لكنه هتك منتج لجمالية خاصة تتأسّس على لعبة حجب وكشف تتناسل على الكتابة كلها ليغدو المعنى هو ذلك الخيط الذي يتراءى بعيدًا من وراء ما يولّده الشاعر من مجازات تتهامس فيما بينها: هذه هي الحقيقة. كأنّما الشاعر يعقد لعملية تطهير خاصة يمارس فيها ما يسميه هوسرل بالتقويس (Bracketing) للحمولات المعجمية للغة لتبقى المفردات عارية، تدخلها الأشياء فتتسمّى بها من جديد. عند هذا المقام، تتخلّق تلك الحالة الخاصة لأبجدية جديدة هي أبجدية التكشّف الأنطولوجي؛ ما يكون به الشّعر حسب هايدغر (تأسيسًا للموجود بواسطة العبارة)، ثم ما يستحيل فيه النشاط الشعري إلى وسيلة تعبيرية حاضنة لأفق تساؤلي يبنيه

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الشاعر، ثم لموقف وجودي تنجاب ملامحه رمزيًّا من وراء الكلمات. تغدو القصيدة، بهذا الفعل، حفلةَ فتقٍ ورتقٍ تستجلب للغة (العربية تحديدًا) ما يبدو حكمتها الشرقيّة الأولى، سرّها وطاقتها العروجية التي تسافر في البعيد، تلك الطّاقة الخلّاقة التي تبتدع نشاطًا تخييليًّا يهب للغة شمسًا ثانية؛ ما تشرق به، وتجدّد عن طريقه قشرتَها البالية.

تصبح اللّغة الشّعرية، بهذا المعنى، أرضًا تستقدم الأشياء إلى تكشّفها الأوّل لتنعقد غامضة (فوامضة) تلك الخبرة بالعالم المطمورة في غيب النص. الطبيعة والإنسان والجماد، الحسيّ والمجرد، القريب والبعيد، الممكن والمستحيل، الأرضيّ والسماويّ، الواقعيّ والأسطوريّ... كل ذلك يتعانق في مصهر واحد تكتبه اليد المحمومة بموقف وجوديّ ينشده الشاعر. موقف يكتبه أدونيس بدوخة مجازية تنعقد فيها الصّلة بين الجسد والطبيعة واللغة لكتابة ذلك الحنين لاستجلاب بدء أوليّ، المنبع المقدس لطفولة أولى؛ عذرية تنفك فيها الصّلات حتّى بين الكلمات:

سأجرّب من أوّل أن أربّيَ فجرًا جديدًا أعلّمه كيف
يستنفر الأرض فيّ، ويسكب جسميَ فيها
أعلّمه شطحاتيَ، أنفخ في روحه أن جسميَ
مازال طفلًا [٢٤]

تغدو الكتابة الشعرية، داخل هذا الفيض الانزياحي، متسربلة بما يبدو "لاءها". اللاء بما هي حق القصيدة في الرفض والاختلاف، صرختها المدوية في وجه تشكيل منوالي قاد لزمن هو زمن النّهايات. الشّعر، كما يراه أدونيس، هو سفر في المطلق المتجرّد من أثقاله؛ أثقال وجودية وجمالية وثقافية أفضت إلى هدر ينتفض ضدّه الشّعر بلغة متحيّرة حرنة تكتب ما يبدو جموح إنسان خلال أزمة ينذر الشعر نفسه، منذ بول فاليري، على أن يكتب بلسانها، وهي (أزمة الروح). أزمة إنسان، يعرف أن عقله الأداتي، ذلك الذي استقدم الأنساق السببية، يشرع الطريق نحو الموت والاحتراب:

[٢٤]- أدونيس، (٢٠٠٥)، أول الجسد آخر البحر، مرجع سابق، ص ١٦٤.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

لا أريد لحبي وأشيائه وضوحًا
لا أريد انتماء ولا نسبًا أو هويّةْ.
لا أريد سوى أن تكون لغاتٍ
للجموح، وأعضاؤنا أبجديّةْ [٢٥].

كأنما أدونيس، الممسوس بسؤال الهوية، يكتب ما تكون به الهويّة مرتبة إنسانية مطلقة متحقّقة بطاقة الفرد الجامحة الخلّاقة، وحضوره الإبداعي الذي تتجسد فيه اللّغة كجسد والجسد كلغة. يكتبان معًا لاءهما انتصارًا لكينونة مهدورة ضدًّا في ترمّد نعيشه، واستلاب يمارس علينا.

شعريّة الانزياح تكتب أيضًا ما يبدو طقس توحّد وحلول ينعقد بين الإنسان والطبيعة. كلّ طرف يقرأ نفسه في مرآة الآخر ويمتد وجوده إليه. فكر صوفي يكتبه الشاعر مجازيًّا ليرسم عبره وجودًا جديدًا في الكون تلبس فيه الطبيعة رداء الإنسان «**فكّت الأرض أزرارها، وسارتْ/ حرّة في خطانا**»[٢٦]، والإنسان رداء الطبيعة «**أتخيّل أنّي غناءٌ/ يتموّج بين حنايا القصب/ أتمازج بالضوء في مخدع الشمس/ أو في خيام الشجرْ**»[٢٧]، ويمضيان معا إلى حضرة واحدة «**عرس الشجر النبات وعرس البشر/ ماء واحد رقص واحد**»[٢٨]. طقس حلولي يتوحّد فيه كلّ شيء؛ يعانق فيه المحسوسُ المجردَ «**زنداك أضغات حلم يتكرّرُ**»[٢٩]، والمجردُ المحسوسَ «**آه للحب- نبعًا/ يتحدّر من ذروات التعبْ**»[٣٠]، والإنسانُ الإنسانَ «**بك أصل إليّ**»[٣١]... كأن كلّ ذلك ينشد، على جسد الأبجدية، استغاثة البدء «**البدء البدء !/ آه لدفء البدء**»[٣٢]. رجاءٌ للبدء كأنّما يستحثّ به

[٢٥]- المرجع نفسه، ص ٨٣.
[٢٦]- المرجع نفسه، ص ٣١.
[٢٧]- المرجع نفسه، ص ٧٢.
[٢٨]- المرجع نفسه، ص٦٦.
[٢٩]- المرجع نفسه، ص ١٠٣.
[٣٠]- المرجع نفسه، ص ٧٢.
[٣١]- المرجع نفسه، ص ١٢٧.
[٣٢]- المرجع نفسه، ص ٦٨.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الشّاعر بدئيّة الوجود العالم. تلك البدئيّة التي ينكتب بها التكشّف الأنطولوجي للأشياء. كما لو أن أدونيس، مثلما فعل بول فاليري، يوجه رسالة رمزية مفادها أن بهذا البدء، ينتصر الشعر على زمن النهايات.

٢ـ شعريّة السّؤال؛ أوعين الشّعر الثّالثة

السّؤال في الشّعر هو اشتغال ضدّ منطق البداهة، وضدّ النّسق السّببي الذي يحكم المعرفة اللّاشعرية. وعليه، فعندما يستدمِج الشّعرُ السؤالَ، فإنّه يعود إلى دمه الحقيقي الذي يتخلّق به الشعر من حيث هو إقامة في البرزخ والمابين، وفي مناطق العصف والحيرة. الشّاعر، إذ يُضَمِّن شعره هذا الفكر التساؤلي، إنما يؤسس ليتم وانفصال محمود يحصّن للشعر صفته الإبداعية الخلاقة. فالسؤال، كما يكتب ذلك صاحب (حداثة السؤال)، هو «رحم تتكون فيه العين الأخرى»[٣٣]؛ عين ثالثة يمتلكها هؤلاء الشعراء الرّاؤون الذين يسكنهم شقاء التقصّي. تلك اليد المحمومة التي تبحث دائمًا عن الشّقوق التي يلج منها الضوء، وتَكْتُبُ دائما، حسب تعبير باشلار، في جوّ من النّدم الفكري. ونحن نقول النّدم الشّعري الذي يجعل الشاعر كأنما يكتب عصفه (موجه) بلغة مزوبعة تستشعرك أنها مسكونة بمحجوب يؤسّس للانفصال وأخذ المسافات حتى داخل ما تهمس به النّفس لنفسها. هذه المعرفة التساؤلية السّديمية هي من الإضافات التي يقدّمها الشعر لفكر الاختلاف، ذلك الذي كتب عنه عبد السلام بنعبد العالي بعبارة شعرية قائلًا «إنه انفصال الذات اللامتناهي عن نفسها والتقاؤها اللامتناهي معها»[٣٤]. وشعرية السؤال هي ما يكشف عن هذا الترحّل والحيرة بين الانفصال والالتقاء، ما بين الكشف والحجب، ما بين وعي التطلّع، ووعي الفاجعة، ووعي التّشظّي، ووعي الصّمت... كأن الشاعر يهرب من كلّ جواب قاتل وكلّ تحديد نهائي يقطع المسار أمام تقلّب تنكتب به الحداثة الشعرية كلّها. تلك

[٣٣]- بنيس، محمد، (١٩٨٨)، حداثة السؤال: بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة، ط٢، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص٨.

[٣٤]- بنعبد العالي، عبد السلام، (٢٠٢٠)، النص المتعدد، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ص ٦٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

حالة من التقصّي الرؤياوي الذي «يقدم فيه الكلام نفسه ناقصًا غير مكتمل»[٣٥]، ويحصّن به الشعر أسراره البعيدة التي ينفرز عنها ذلك الأثر العظيم الذي يتحوّل إلى رمز أبديّ في المخيال الثقافيّ كاملًا.

في (أوّل الجسد آخر البحر) هذه المعرفة الشعرية التّساؤلية التي تتكشّف حضوريًّا بسؤال مباشر، وقد لا تتكشّف به. معرفة توحي على أن أدونيس إنما يكتب تيهَه، ويلاحق دائمًا غيبًا يتقنّع بصيغة سؤال مفتوح لا يُهدِّئُ روعَه جوابٌ معيّن:

قرأت شجرةَ أعضائي
أهناك مفردات لا أعرفها؟ [٣٦]

وحده ذلك الصدى الذي تحدثه نبرة السؤال يبقى عالقًا في سماء المجهول بما هو هذا الكون ذاته:

من هو إذًا فيها
من هي إذًا فيه؟
من هما إذًا في العالم؟ [٣٧]

العالم الذي أنهكته الأجوبة التي تجتهد في مراكمتها المعرفة اللاشعرية التي تولم البداهة كعنف رمزي يتخلّل العالم. لصدى السؤال دائما تلك الرغبة التي تسكن الفكر، حسب موريس بلانشو. وإذا تعلّق الأمر بالشّعر، فإن الرّغبة تتحوّل إلى تقصّ في فضاء خاص، وهو فضاء المجهول اللّانهائي. فضاء الكلام الذي لا يستقر له حال، والإبداع الذي ما يفتأ يتجدّد:

من أين للكلام أن يجلس على عرش واحد

---

[٣٥]- بلانشو، موريس، (٢٠٠٤)، أسئلة الكتابة، ترجمة نعيمة بنعبد العالي وعبد السلام بنعبد العالي، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ص١١.

[٣٦]- أدونيس، (٢٠٠٥)، أول الجسد آخر البحر، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

[٣٧]- المرجع نفسه، ص ١٩٧.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

مع هذا البرق الذي يبتكر أعضاءنا؟ [٣٨]

تلك صورة لأبجدية راقصة يسكنها التّحيّر والتّوثّب، ويراودها البحث الدائم وراء الشّتات الذي يتخلّل الكون. شتات يعبر عنه أدونيس بكل الصّيغ الاستفهامية كأنّما يقلّب وجوهًا للغيب لا تنحدّ:

قلت: أسهر حتى الصباح لأكتب، لكن
ما أقول؟ انكببت لأخط وأمحو
وأبدأ. لا شيء. كيف تغيّرت؟
أنّى وكيف توارى
كل ما كان عندي؟ [٣٩]

السّؤال هنا هو طريق لشعرية خاصة هي شعرية المحو التي تحتفي بنقصانها الدّائم وبتلك الرغبة المحمومة في التجاوز le dépassement والخروج والتفكيك لكل ما يُتَوَهَّمُ يقينُه. فالشعر، في الأخير، هو سفر لا وصول، احتفاء دائم بمعرفة غير مستقرّة تتهيّأ مجازيًّا في الدّيوان بلبوس البحر والموج والريح، وبأبجدية تنفتح على داخليتها انفتاحًا تساؤليًّا «**ي {...} متى ستفهمين الأفق الذي ابتكرته صورتي لمعناك؟**»[٤٠]. نداءات لا تنتهي تطلقها القصيدة وتتقافز بين أصواتها كأنّما تقوّض بها كل ثبات واكتمال، وتؤمّن بها للمعنى مسالكه اللّانهائية ضدًّا في الأنساق المختلسة للمعنى:

أهنالك في الحب، في الشعر
ما يخنق الفضاء، وما يقتل الرجاءْ
ولماذا، إذًا، لا تموت السماءْ؟ [٤١]

تلك هي الأسئلة التي يصفع بها الشّاعر ما يبدو هدوءًا شعريًّا يسكن القصيدة. آنئذٍ

[٣٨]- المرجع نفسه، ص ١٩٦.
[٣٩]- المرجع نفسه، ص ١٣٧.
[٤٠]- المرجع نفسه، ص ١٦.
[٤١]- المرجع نفسه، ص ١١٢.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

تنتفض تلك الطّاقة العروجية التي يتفرّد بها دم الشّعر، ويتهيّأ ذلك العصف الفكري الذي يُبقي نشيدُ الشعر على صداه اللانهائي. كأنما أدونيس الأسطوري يستعير هنا سبابة الإله بوشان؛ يرشد للكنوز دون أن يوجدها، يشير للطريق التي تتخلّل الغابة السوداء، لكنه طريق يحفظ مجهوله وأسراره. طريق يتحلّى بلبوس شعرية خاصة يجود بها السّؤال على الشعر. ذلك السؤال الذي وصفه خالد بلقاسم بأنه «شغوف بالتصدّعات والشّقوق والفجوات والبياضات، أي بما يمنع تحقّق الإيهام باكتمال ما، وشغوف أيضًا بمواقعه المباغتة، أي بالقدوم من حيث لا يُتوقّع القدومُ»[٤٢].

٣- الحبّ ومشكلة الوجود الإنسانيّ، أو الابتكار الشّعريّ لفلسفة الحب

(شعريّة الحب) هي إحدى الاهتمامات التي اتّجهت إليها مدارات التجريب في القصيدة المعاصرة. فالحبّ يبرز كحاجة وجوديّة في ظلّ انحسار أصاب الوجود الإنسانيّ، وكذلك كان منذ الزّمن البعيد. يكشف فيلسوف الحب ألان باديو عن هذا المعنى قائلًا «أن تحب يعني أن تناضل، في ما وراء العزلة، مع كل ما يمكن أن ينعش وجودك في هذا العالم»[٤٣]. غير أنّ الحداثة الشّعريّة، ومنذ (فصل في الجحيم) لأرتر رامبو، سكنها ذلك القلق الوجودي الناتج عن العيش في عالم يفتقد للمعنى. الحب يبرز في زمن (الجحيم) كملاذ يحتضن المعنى، وكقوّة يرتق بها الشّاعر فتقَه الوجوديّ. هو تمكين للكينونة يشغل أدونيس. تمكين يبدو كأنّه يستجيب به لدعوة معلّم الحداثة أرتر رامبو لما شدّد، بنداء شعريّ يخترق الزّمن، على أنّنا يجب أن نبتكر الحبّ من جديد. وهو ابتكار تشتدّ الحاجة إليه في ظلّ زمن الآلة الذي فقد فيه الحبّ قيمته العليا كحدث يخترق الوجود. فقدان تتعالى فيه الحاجة لأدونيس الإله الذي يغرس في الأرض بذرة النّماء، والشاعر الذي ينشد، وهو يتأمّل في الحب، مسلكيّة جديدة للتّعالق الإنسانيّ، وواقعًا آخر تنفتح فيه الأشياء على صورتها، والإنسان على جسده، والأبجدية على نفسها، والأرض على تقاطيعها. (حالة) صوفية تبلغها الأشياء يعبر من خلالها أدونيس عن وعي شعريّ خاص

[٤٢]- بلقاسم، خالد، (٢٠٢٠)، مرح القراءة في البحث عن المعنى، كتاب الدوحة ١٠٥، ص٨.
[٤٣]- باديو، ألان، (٢٠١٤)، في مديح الحب، ترجمة غادة الحلواني، ط١، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ص ٤٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

يسكنه، وهو وعي التطلّع للأساسيّ فينا؛ أين تنفتح الذات على توهّج الحياة وألقها، وينغرس الإنسان في أبدية الحقيقة التي تتحلّى برداء الحب، فتتخثّر وتضيء.

أقام أدونيس لهذا الحب شعرية خاصة استحال فيها إلى قوة خلّاقة مضيئة ينفرز عنها ضرب من الوجود في العالم يمثّل الممكن الذي تتطلّع إليه الذّات الشاعرة. الممكن الذي يمثّل الخلاص المشرق في زمن أرهقته الحقائق الماديّة. العودة إلى الحبّ هي عودة إلى لغة التّعبير الأوّليّ، وارتقاء إلى حالة التّمكين اتّقاءً لهدر كيانيّ واستلاب فُصِلَ فيه الإنسان عن قواه الخلّاقة وطاقته الكيّانية. تلك الطاقة التي تؤمّن الخلق والتحوّل؛ وعد الحياة الذي يفضي إلى كائن يعيش لأجل حضوره الجامح؛ ما يغالب به الإنسان ترمّدًا وانسحاقًا لا ينفكّ يرحب ويتمادى:

لا أحدّدُ لا أرسمُ
الدخول إلى ليل حبي مضيءٌ
والخروج هو المعتمُ [٤٤]

الحبّ يصير هنا قوّة مجدّدة تؤمّن للشاعر جسمًا جديدًا «**اعطه، أيها الحب، جسمًا جديدًا**»[٤٥]. جسم يصون له الحب أبديّته النّاصعة ضدّ تجاعيد الزّمان. ويصون له الشّعر مرتبته الرّمزية ضمن المخيال الأدبيّ الذي يبدعه الشّاعر. الحبّ لدى أدونيس يتحلّى بمرتبة شعرية مطلقة، وهي مرتبة ما يسميه رولان بارط في (شذرات من خطاب محب) بحب الحب. الحب الذي يغدو، حسب إريك فروم، «جوابًا على مشكلة الوجود الإنساني»[٤٦] وانتصارًا على أنساق سببيّة غارقة فيما يبدو كهف أفلاطون. الحب الذي يغدو، بلغة المتصوّفة، فيضًا يخترق الوجود:

لا أحب لآخذ شيئًا-
ليس حبي قناعًا ولا رايةً
مثلما يتدفق نبعٌ

[٤٤]- أدونيس، (٢٠٠٥)، أول الجسد آخر البحر، مرجع سابق، ص ٣٤.
[٤٥]- المرجع نفسه، ص٣٣.
[٤٦]- فروم، إريك، (٢٠٠٠)، فن الحب، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، بيروت، دار العودة، ص١٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

مثلما تشرق الشمسُ،
أحببت: فيضٌ، ولا غايةٌ [٤٧]

كأن أدونيس يؤسّس بهذا لحب ينبض في ديمومته، ذلك (الما يدوم) الذي يؤسّسه الشعراء حسب هايدغر. يد محمومة تكتب وعيها التطلّعي لإعادة تشكيل الكون وفق مبدإ الحب في مطلقيّته. ذلك الحب الذي تنغرس فيه جذور الكونيّة، وتتجذّر به ذات الشاعر فيما يبدو عينها المقدّسة، أو معراجها للارتقاء إلى مرتبة الكائن الفائق المتعضون في جسديّة واحدة هي جسديّة الكون كلّه. ذلك الكون الذي ينرسم عليه «**عناق الطبيعة والطبع**» [٤٨].

الابتكار الشّعريّ للحبّ هو استحضار للممكن الذي يستهدفه الشّعر. الممكن بما هو توق للحفر عن غائب سقط في عالم الموتى. حفر تخوضه يد الشاعر بعزيمة الشّعر الميثولوجية؛ يوم كان للشعر والحب إلهًا يحصّن له قسمته في الوجود. يوم كان له (أدونيس) يجدّد طلعته كلّ عام فتتجدّد معه الحياة الطالعة من رحم الموت:

لا تقفْ
تابع الرّقص يا أيّها الحب، يا أيّها الشّعر
حتى ولو كان موتًا [٤٩].

فلسفة خاصة إذًا تنكتب من وراء الشّعر يستحيل فيها الحب إلى بلاغة مضادة تستمسك بها القصيدة كنشيد يهفو إليه الزّمن. الشّاعر هنا كأنّما يراهن على القدوم من حيث هو رؤيا ووعد تتسمّى به حقيقة الشعر. تلك الحقيقة التي تنغرس جذورها في السماء ليصبح الحب بالنسبة إليها هو ما «**سنحظى به، ذات يوم**» [٥٠]، هو ذلك المجهول الغائب الذي ترحل إلى أرضه القصيدة بجذورها لتغرس فيه لقاء خاصًا هو لقاء مع ذاتها بما هي كتابة منذورة إلى المستقبل، وبما هي فن شعري، ذاك الذي يتحدّد «كفن الرغبة لا فن

[٤٧]- أدونيس، (٢٠٠٥)، أول الجسد آخر البحر، مرجع سابق، ص ٥٣.
[٤٨]- المرجع نفسه، ص ٢٦.
[٤٩]- المرجع نفسه، ص ٥٥.
[٥٠]- نفسه.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الامتلاك»[٥١]. رغبة تمثّل لإنسان منذور إلى سفر دائم وإقامة تنعقد في القدوم بما هو الحب الموعود ذاته؛ وردة الحياة الذابلة، تلك التي تعيش على الأمل في طلعة من طلعات أدونيس، إله الحب والشعر. طلعة تأتي، لا من العالم السفلي المعتم، بل من ضوئية ينشق نورها من سماء المستقبل:

قلت للحب: هيأتُ نفسي لأفعل ما شئتهُ،
أن أسمّي حياتي مستقبلًا
يتبرّأ من زمن الذاكرهْ [٥٢].

الحب يغدو في (أوّل الجسد آخر البحر) لغة تكتبها الأبجدية ذاتها. فالشاعر فكّك الأبجدية ليستنطق غيبها. كأنما جرّد منها ذاتًا تتموقع في حيز الآخر الذي يتوجّه إليه الكلام. حالة شعرية خاصة تعانق فيها اللغة ذاتَها، وتكتب فيه الأبجدية باسمها. كأنما الشّاعر يخلّد صورة مطلقة يكون فيها الشّعريّ هو الشّعريّ والأبجدية هي نفسها. شعر كأنما يتأبّط عطشه، فيرتوي بدمه الخاص. تنحلّ حروف اللغة ليعاد رتقها على القصيدة. يحملها الشاعر إلى آفاق تخييلية جامحة. تتجسدن في صورة الإنسان فتصبح هي ذاته، وهو ذاتها. حالة خاصة من الالتفاف على الذات. كأنما الاتجاه إلى الأغوار هو ما بات يشغل الشاعر. اتجاه غوريّ تنظر فيه الأشياء إلى مرآة نفسها عوض الالتفات إلى خارج مأهول بلغة التعب. يمتلئ جسد الأبجدية على صفحة الشعر بالحياة، تغدو كأنها المرأة المطلق التي يخاطبها الشّاعر، لها جسد وأحلام ورؤى. كما لو أن الشّاعر يستقدم للأبجدية فعاليتها الأولى ضدًّا في أبجدية أخرى باتت تكتب موتها. الأبجدية تصبح هنا كأنها غاية، كأنها الحشوة لا اللّفائف، كأنها تدخل حفلة للتكشّف الأنطولوجي، تعيش شيئًا من البدء الذي كانت فيه اللغة تُوجِد. كأنما اللغة تنتصر لنفسها في زمن هجرانها. حالة خاصة لتعتّق الشعريّ واختمار الوعي المرتبط به. أبجدية تقيم على أحواز ذاتها. تلك هي صداقة الكتابة كما كتب عنها فلاسفة الكتابة. الصداقة التي تتخلّق فيها حالة من الالتفاف

[٥١]- أدونيس، (٢٠١٢)، زمن الشعر، ط٧، بيروت، دار الساقي، ص١١٧.
[٥٢]- أدونيس، (٢٠٠٥)، أول الجسد آخر البحر، مرجع سابق، ص ١٠٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

الفينومينولوجي؛ ذلك الملمح الماهوي الذي تتخذه الأشياء فتصير هي بنفسها لا بخارجها. الأبجدية تغدو هنا ظاهرة هوسرلية محضة تنكتب بمخيال شاعر عمّر ما يكفي ليدرك أن نشيد الأبجدية هو ما يبقى للشاعر بعدما يجرّب تحوّلات كثيرة. يصبح الحب داخل هذا النشيد نداءً تكتبه الأبجدية. الصاد «**من فراش حبها/ خرج العالم الذي تكرهه**»[٥٣]، والباء «**حبها، صيغة خاصة/ لا تحاور إلا المستقبل**»[٥٤]... كأنّما نشيد الحب يرتقي هنا إلى حالة الوقف الفنّي من حيث هو وقف للحقيقة. «**معجم مصغّر لهنّ**» يحتفظ به الشعر خالدًا وناصعًا لا تبلغه قدامة ولا تبليه تجاعيد الزّمان. معجم يكتبه الشاعر بلغة الشذريّ، ذلك المقام الكتابيّ الذي يتكلّم به لسان الفاجعة.

٤ـ شعريّة الجسد: نحو أفق لكتابة فلسفة الجسد

تنكتب صورة الجسد هنا بوعي شعري فينومينولوجي. تتقاطع تخييلية الجسد هنا مع تصور ميرلوبونتي، الذي يعتبر أن الجسد ليس سجنًا أو مصدرًا ليبيديا، بل هو «ما يجعلني أتجذر في العالم»[٥٥]. الجسد، يغذو شعريًّا، في هذا الديوان ذلك (الأوّل) الذي ينشده الشّاعر. الأوّل من حيث هو بدء وعودة إلى أصل هو منبع الحياة وصنوها الأصيل. يصور أدونيس الجسد هنا وفق مشاهد مختلفة، فهو جسد اللغة، وجسد المرأة، وجسد الشاعر، والجسد الإنساني بصفة عامة. أجساد يبدو كما لو أن الشاعر يكتب بها صلحًا للإنسان مع نفسه ومع الحياة، ويوجه بها كلامًا ضديًّا لموت بات يهدّد الحياة. فعندما يغيب الجسد يحضر الموت. والجسد هو موطن التّحقّق الفيزيائي للحياة. حنين أرضيّ لتوهّج الحياة يكتبه أدونيس بكلام شعري لانهائي. كلام يهب للجسد أبديته وخلوده ضد زوال يتهدّده. يرسم له ما يبدو وجودًا شعريًّا يرفعه لمصاف الرّمز الخالد الذي يبقيه في نصاعة أبدية. يهيّئ له على أرض الشعر مقامًا يستعيد به الحياة في توهّجها. مقام كأنما يغالب به الشاعر وجودًا ماديًّا فانيًا، تمامًا كما غالب فان غوخ ترمّدًا طال فردتي

[٥٣]- المرجع نفسه، ص١٣.
[٥٤]- المرجع نفسه، ص١١.
[55] -Merleau-Ponty, (1945), Phénoménologie de la perception, Paris, Edition Gallimard, p 97

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

حذاء الفلاح، فرفعه إلى مقام الوجود الحق الذي لا يطاله المحو أو القدامة. فالشعر يُبقي الجسد حيًّا بكلام له سيمياء خاصة. كأنّما أدونيس يقول بأنه لا وصيّة على الكتابة سوى ما تخلقه الذات ويتخلّق بها وفيها. رمية نرد أخيرة من ذات تواجه مصيرها بكلام هو (كلام الجسد) بما هو «كلام الذات التي لا تعرف الاستقرار»[٥٦]. وعي آخر ضدّي تستقدمه الكتابة ضد عالم يكرّس الاستلاب على الجسد بما هو صنو الحياة. خلق شعري يناصر به الشاعر ما تؤمّن به الحياة امتدادها الخلقي. فالجسد هو كتاب لا حدود لمعناه:

كل يوم نجيء إلى جسدينا،
نقلّب أيّامنا
في كتابيهما.
ثمر واحدٌ
غير أن القطاف بلادٌ
لا تخوم لها [٥٧].

كأنما الشّاعر يقول بأن بذرة الكونية لها مستقر في لغة الجسد بما هو طريق للقاء مع الآخر. طريق لتأصيل المثنّى من حيث هو النّقطة الأولى لتجربة الاختلاف على الأرض:

جسدانا
كوكب واحدٌ
نتبادل أحزاننا
نتبادل أحشاءنا،
جسدانا دم واحدٌ [٥٨]

كأنما الشاعر هنا يستقدم حالة البدء الأولى التي كان فيها الوجود بالمثنّى، وكان فيها

[٥٦]- بنيس، محمد، (٢٠١٠)، كلام الجسد، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ص٦.
[٥٧]- أدونيس، (٢٠٠٥)، أول الجسد آخر البحر، مرجع سابق، ص ٢٧.
[٥٨]- المرجع نفسه، ص ٢٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

الجسد، باعتباره منذورًا إلى اللّقاء مع الآخر، تجربة أولى في الكونية وفي الاختلاف.

يمضي أدونيس إلى قراءة اللغة التي تتخلّل الجسد. تلك اللغة المتمنّعة التي تبدو كما لو أنّها لغة الشعر ذاته التي يتحلّى بها الجسد:

دمي نقيضي يبنيني وأهدمه
حتّى كأني فيه عاشق ولهي
وغيّه، وكأني أشتهي جسدي [٥٩]

ذلك اشتهاء لجسد يتسربل بكلام لانهائي هو كلام الشّعر ذاته، اشتهاء لجسد متأصّل في حركته المتوثّبة، ولعالم يُعاد تشكيله وفق اندفاعات الجسد بما هو صنو للحياة ذاتها التي يتهدّدها الترمّد. هذا الاشتهاء هو الممكن والوعد الذي يتهيّأ فيه الجسد كطاقة خلاقة ونشيد للحياة يقرأه أدونيس في وجه الأرض المتعب. فالشّاعر يخوض بشعره رحلة بحث عن رتق ممكن لانكسارات تطال الجسد:

هو ذا جسمي انكسارٌ. يتنقل في جرحهِ
من مضيق إلى آخر،
في غياهب تلك المدينهْ. [٦٠]

انكسار يكتبه الشّاعر بقصد تجاوزيّ تنفتح دروبه من خلال قراءة صوفيّة يصبح فيها الجسد الواحد طريقًا لتوحّد وجوديّ وحلوليّة تنكتب بين الأنا والآخر، بين الشاعر وذات أخرى يبقي عليها أدونيس كرمز شعري مفتوح يقبل أن يكون امرأة بصيغة المطلق، ويقبل أن يكون الأبجدية التي ينكتب بها كلام الجسد «**جسدك عاريًا، مكشوف بيّ، مكتثف بيّ فيّ**» [٦١]. كأنما الشاعر يؤصّل بالجسد تجربة وجود في العالم تقوم على تعضون يقيمه الجسد مع الآخر. تعضون يغدو فيه الآخر هو الأنا والأنا هي الآخر. كأنما الجسدان يكتبان موطن تحقّق جديد تتخلّق فيه تلك القوّة العابرة للوجود. القوّة التي يستقدم

[٥٩]- المرجع نفسه، ص ١١١.
[٦٠]- المرجع نفسه، ١١٥.
[٦١]- المرجع نفسه، ص ١٢٨.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

أدونيس ضوءها من فلسفته في قراءة التراث. ذلك التراث الحي الذي تهفو جذوره لسماء المستقبل.

لهذا الجسد إذًا يقيم أدونيس طلسمًا خاصًّا يقرأ فيه سيمياء الأعضاء ولغتها البعيدة. تلك اللغة التي تكتب رسالة الحياة التي تتخذ من الحضور الجسدي موطنًا للتحقّق الوجودي، وموطنًا لقطاف خاص يكتبه الشاعر بكثافة شعر غامض فوامض يتهيّأ فيه المثلث كرمز لمنبع الحياة، كرمز لولادة متجدّدة تنبعث من رحم الأرض، كرمز يعبّر به الشاعر عن ممانعة يكتبها الشعر بدم الجسد، كرمز للطبع البشريّ بما هو حضور لفعالية إنسان خلّاق وإبداع خلّاق ينشده الشاعر رغم الجراح التي تخترق الكون. ينشده بلغة من شيّخوا في الشعر، فسكنتهم جذبة شعر يقظ لا يرضى بغير فكر ضوئيّ ممسوس بالبحث عن بذار الحياة، وهو فكر (أول الجسد آخر البحر) تحديدًا.

خاتمة:

تسمح المسالك القرائية السّابقة بالوصول إلى الاستنتاجات الآتية:

- لدى محمود درويش، تنجاب الصّورة العامة لفكر شعري تلوح وجوهه بناء على جماليات تعبيرية تكشف عن نشدان الشّاعر للمجاوزة التي تفضي إلى معانقة الأبدية، ثم للنسيان والانفصال بما هو خلق وابتكار متجدد، ثم للتجربة الداخلية باعتبارها ذلك المصهر الذي يتطهّر فيه الإنسان من كل المهاوي والتوترات.
- لدى أدونيس، تنجاب الصّورة العامة لفكر قائم على التكشّف الأنطولوجي للأشياء عن طريق الخلق وإعادة التسمية التي تسمح بها اللغة الشّعرية العليا. كما تتراءى الصورة العامة لفكر تشكيكي قائم على السّؤال بما هو رغبة دائمة في تجديد الرؤى والتجاوز. وتنكشف أيضًا ملامح الابتكار الشّعري لفلسفة الحب بما هو سبيل لمراجعة مشاكل الوجود الإنساني، ولفلسفة الجسد بما هو صنو للحياة ووسيلة لتجذير الذّات في العالم.
- تمثيلية الفكر، كما تم الكشف عنها ضمن العناصر السّابقة، تتحقّق من خلال الأفق التّدليلي الذي يتشكّل من خلال انزياحات اللغة، والتباسات الصور الشّعرية، وتداخل

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

عوالم الكتابة التي يمتزج فيها الذّاتي والمجرّد والمشخّص...

- تمثيلية الفكر، بشكلها السّابق، تكشف عن طموح شعري لتجذير أفق فكري كوني يعانق هموم الإنسان في زمن يجري فيه التّعتيم على آلام الإنسانية وأسئلتها.
- الأفق الفكري الذي تشكّل لدى محمود درويش ينبع من محاولاته تخليد صوت الشاعر ضد التناهي الذي يتهدّده، وضد التكرار الذي يفضي إلى الانغلاق والموت الرمزي لاسم الشاعر ولكلامه الشعري.
- الأفق الفكري الذي تَشَكَّل لدى أدونيس ينبع من طموحه للخلق والابتكار والاكتشاف المستمر، ولاهتمامه بما يخلّد صوت الوجود الإنساني على الأرض.
- القراءة السابقة هي نتيجة لمقاربة شعرية هيرمينوطيقية تضيء النص المقروء من خلال مواقع قرائية معينة، وتفتحه على آفاق قرائية لامتناهية.

قائمة المصادر والمراجع

ISSN : *2537-0847* eISSN : *2537-0898*

١ـ المتن المعتمد:

- أدونيس، (٢٠٠٥)، أوّل الجسد آخر البحر، ط٢، بيروت، دار السّاقي، ٢٠٠٥.
- درويش، محمود، (٢٠١٤)، لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي، ط١، عمان ورام الله، مؤسّسة محمود درويش، الأهليّة للنشر والتوزيع، دار الناشر، ٢٠١٤.

٢ـ المراجع العربية:

- أدونيس، (٢٠١٢)، زمن الشعر، ط٧، بيروت، دار الساقي، ٢٠١٢.
- الغانمي، سعيد، (١٩٩٩)، منطق الكشف الشعري، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- بلقاسم، خالد، (مارس ٢٠٢٠)، مرح القراءة في البحث عن المعنى، كتاب الدوحة، العدد ١٠٥.
- بنكراد، سعيد، (٢٠١٢)، سيروات التأويل: من الهرموسية إلى السيميائيات، ط١، منشورات الاختلاف، ودار الأمان، والدار العربية للعلوم ناشرون.
- بنعبد العالي، عبد السلام، (٢٠٢٠)، النص المتعدد، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.
- بنعبد العالي، عبد السلام، (٢٠٠٨)، في الانفصال، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.
- بنعبد العالي، عبد السلام (٢٠٢١)، قراءات من أجل النسيان، ط١، ميلانو، منشورات المتوسط.
- بنيس، محمد، (١٩٨٨)، حداثة السؤال، بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة، ط٢، المركز الثقافي العربي.
- بنيس، محمد، (١٩٩٤)، كتابة المحو، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.
- بنيس، محمد، (٢٠٠٧)، الحق في الشعر، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.
- بنيس، محمد، (٢٠١٠)، كلام الجسد، ط١، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.
- بوسريف، صلاح، (٢٠٢١)، السهم والوتر: بيانات في حداثة الكتابة، ط١، عمان،

ISSN : 2537-0847 eISSN: 2537-0898

الأردن، دار خطوط.
- بوسريف، صلاح (٢٠٢١)، الفكر النائم في نقد ومساءلة الشعرية العربية المعاصرة، ط١، عمان، الأردن، فضاءات للنشر والتوزيع.
- بومسهولي، عبد العزيز (٢٠٠٢)، الشعر والوجود والزمان: رؤية فلسفية للشعر، ط١، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق.
- مصطفى، عادل (٢٠١٧)، مدخل إلى الهيرمينوطيقا: نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، مؤسسة هنداوي.
- مكاوي، عبد الغفار، (٢٠١٧)، شعر وفكر، دراسات في الأدب والفلسفة، مؤسسة هنداوي.

٣- المراجع المترجمة:

- إيكو، أمبرتو، (٢٠١٦)، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، ط٣، المركز الثقافي العربي.
- باديو، ألان، (٢٠١٤)، في مديح الحب، ترجمة غادة الحلواني، ط١، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر.
- باطاي، جورج، (٢٠١٧)، التجربة الداخلية، ترجمة عدنان محمد، ط١، دال للنشر والتوزيع.
- بلانشو، موريس: (٢٠٠٤)، أسئلة الكتابة، ترجمة نعيمة بنعبد العالي وعبد السلام بنعبد العالي، ط١، دار توبقال للنشر.
- بلانشو، موريس، (٢٠١٨)، كتابة الفاجعة، ترجمة عز الدين الشنتوف، ط١، دار توبقال للنشر.
- هايدغر، مارتن، (١٩٩٤)، إنشاد المنادى، قراءة في شعر هولدرلين وتراكل، تلخيص وترجمة باسم حجار، ط١، المركز الثقافي العربي.- هايدغر، مارتن، (٢٠٠٣)، أصل العمل الفني، ترجمة أبو العيد دودو، ط١، منشورات الجمل.
- فروم، إريك، (٢٠٠٠)، فن الحب، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار العودة.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

- كوهن، جان، (١٩٨٦)، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الوالي، ومحمد العمري،ط١، دار توبقال للنشر.

٤- المراجع الأجنبية:

- Eco, Umberto, 1990, Les limites de l'interprétation, éditions Grasset.
- Gadamer, H.R, 1993, L'art de comprendre, éditions Aubier.
- Merleau-Ponty, 1945, Phénoménologie de la perception, Paris, Edition Gallimard.
- Ricoeur, Paul, 1969, Le conflit des interprétations, éditions Seuil.

ISSN : *2537-0847* eISSN: *2537-0898*